رأى جديد فى :

حمـــاد الراوية

الأستاذ السيد يعقوب بكر

— ٥ —

يقول نولدكه إن حماداً هو الذى اختار المعلقات ، وهو فى هذا يتابع ما قاله ابن النحاس فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وليست بنا حاجة هنا إلى أن نعيد ما قلناه فى صدد رأى ابن النحاس . إنما نكتفى بنقد ما يستدلّ به نولدكه من أن حماداً أقحم قصيدة الحارث بن حلزة مملأةً منه لمواليه بنى بكر ، ودفعاً منه لقصيدة عمرو بن كلثوم فى الافتخار بتغلب . فنولدكه يرى فى هذا دليلاً على أن حماداً هو الذى اختار المعلقات . وهو دليل لعمرى ضعيف . فقد كان يستطيع حماد ألا يختار قصيدة عمرو ، لو كان هو الذى اختار المعلقات . ولكنه لم يغفلها أو لم يسمْه إغفالها ، لأنه كان يجمع مشهورات القصائد ، أى القصائد التى اختارتها العرب وفضّلتها ، وفيها قصيدة عمرو بن كلثوم . وهكذا يكون دليل نولدكه دليلاً عليه لا له . وأما ما يقوله من أن الحارث بن حلزة لم يكن شاعراً مبرزاً ، وأن حماداً أقحمه بين أصحاب المعلقات إقحاماً ، فنحن نورد عليه اعتراضين : الأول أن ابن سلام الجمحىّ صاحب طبقات الشعراء يجعل عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد فى طبقة واحدة ، هى الطبقة السادسة من طبقات الشعراء الجاهليين ؛ والثانى أن الحارث بن حلزة كان زعيم قومه كما كان عمرو بن كلثوم زعيم قومه ، وأن قصيدتيهما استفاضتا بين العرب لهذا السبب . وليس فى الاعتراض الثانى مطعن فى شعر الشاعرين ، وإنما نريد به الدلالة على أن مكانة القائل تغنى عن جودة القول فى مجال الشهرة والذيوع .

فالحارث إذن من شعراء المعلقات أصلاً . ويؤيد هذا ما يقوله نولدكه نفسه من أن ابن عبدربه ، وابن النحاس (فيما يقوله القدماء) ، قد قبلا المعلقات السبع كما جاء بها حماد ، ولم يُبدلا فيها شيئاً من شىء . ومعنى هذا أنهما لم يجدا مطعناً فى جمع حماد المعلقات ، ولم يريا ما يراه نولدكه من أنه أقحم الحارث بن حلزة إقحاماً . وهما من رجال أوائل القرن الرابع الهجرى ، كما سبق ذكره ؛ فهما إذن قريبا عهد بعصر حماد (المتوفى سنة ١٥٥ أو ١٥٦ هـ) . وأما ما يذكره صاحب جمهرة أشعار العرب من أن المفضّل قال : « القول عندنا ما قاله أبو عبيدة فى ترتيب طبقاتهم ، وهو أن أول طبقاتهم أصحاب السبع معلقات ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد » ، ومن أنه قال : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب بالسموط ، ومن زعم غير ذلك فقد خالف الجمهور » أما ما يذكره صاحب جمهرة أشعار العرب من قول المفضل هذا ، فلا يمكن الاعتماد عليه ، لأنه ظهر — كما يقول نولدكه نفسه — أن صاحب الجمهرة غير ثقة ، وأنه إنما انتحل اسم أبى زيد القرشىّ ليخدع الناس عن نفسه . فالمفضل وأبو عبيدة ، وهما معاصران لحماد ، لم يخالفاه إذن فى شعراء المعلقات ولم يجعلا النابغة والأعشى مكان عنترة والحارث بن حلزة ؛ أو لم يثبت أنهما خالفاه .

فقد استبان إذن زيفُ رأى نولدكه ؛ واستقام لنا ما قلناه من أن العرب القدماء هم الذين اختاروا المعلقات وفضلوها على غيرها ، وأن حماداً هو الذى جمعها بعضها إلى بعض وجعل منها جملة معروفة متداولة . وما قلناه فى رأى نولدكه يمكن أن نقوله فى آراء من شايعه من المستشرقين ، أمثال أرندنك (الموسوعة الإسلامية ، مادة حماد الراوية) وبروكلمان (كتابه المشهور ، ج ١ ص ١٨ ، وتكملة ج ١ ص ٣٤) وغيرهما .

جمع حماد المعلقات إذن . بل إنه جمعها كما سمعها ، فلم يصحّ عنه فيها انتحال .

كذلك روى حماد معظم شعر امرىء القيس . ففى المزهر (ج ٢ ص ٢٠٥) أن الأصمعى قال : كل شىء فى أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية ، إلا شيئاً سمعناه من أبى عمرو ابن العلاء .

(ج) اشتهاره بالانتحال :

اشتهر حماد بالانتحال ، وهو ما سنناقشه فى الفصل الآتى من البحث . إنما نكتفى هنا بحصر الأقوال والأخبار التى توردها كتب القدماء فى صدد انتحاله ، لتكون هذه الأقوال والأخبار موضع تمحيصنا فيما بعد .

أقوال العلماء فيه :

١ — فى الأغانى (جـ ٥ صـ ١٧٢) ومعجم الأدباء (صـ ١٤٠) وخزانة الأدب (صـ ١٣١) أن المفضل الضبى قال : قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ؛ لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟

٢ — وفى الأغانى أيضاً (صـ ١٧٤) أن خلف الأحمر قال : كنت آخذ عن حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها .

٣ — وفى الأغانى أيضاً (صـ ١٦٤) ومعجم الأدباء (صـ ١٤٠) أن الأصمعى قال : كان حماد أعلم الناس إذا نصح (يعنى إذا لم يزد وينقص فى الأشعار والأخبار) .

٤ — ويقول ابن سلام فى طبقات الشعراء (صـ ٢٣ — ٢٤) ، وينقل عنه السيوطى هذا فى المزهر (جـ ١ صـ ٨٧) ، إنه سمع يونس بن حبيب يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر .

٥ — وفى المزهر (جـ ٢ صـ ٢٠٥) أن أبا حاتم قال : كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره ، وكانوا يصنعون الشعر ويقتنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله .

٦ — ويقول ابن سلام (صـ ١٣) ، وينقله عن السيوطى فى المزهر (جـ ١ صـ ٨٧) : وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ؛ وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار .

أخبار الحماد :

١ — يذكر أبو الفرج (صـ ١٧٣ - ١٧٣) ، وينقل عنه البغدادى (١٢٨ — ١٢٩) ، أن أمير المؤمنين المهدى دعا المفضل الضبى وقال له : إنى رأيت زهير بن أبى سلمى افتتح قصيدته بأن قال

* دع ذا وعدّ القول فى هرم *

ولم يتقدم قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت فى هذا شيئاً ، إلا أنى توهمته كان فى قول يقوله أو يروّى فى أن يقول شعراً قال : عد إلى مدح هرم دع ذا ، أو كان مفكراً فى شىء من شأنه فتركه وقال : دع ذا أى دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول فى هرم ؛ وأن المهدى دعا بعد ذلك حماداً وحده ، فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف ؟ فأنشده :

* لمن الديار بقنّة الحجر *

الأبيات الثلاثة .

* دع ذا وعدّ القول فى هرم *

البيت ؛ وأن المهدى أطرق ساعة ، ثم أقبل على حماد ، فاستحلفه على هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير ، فأقرّ له حينئذ أنه قالها ، فأمر فيه وفى المفضل بما أمر به من شهر أمرهما وكشفه .

٢ — وفى الأغانى (صـ ١٧٤ — ١٧٥) ، وخزانة الأدب (صـ ١٣١ — ١٣٢) أيضا أن الطرماح بن حكيم قال : أنشدت حماداً الراوية فى مسجد الكوفة ، وكان أذكى الناس وأحفظهم قولى :

* بان الخليط بسُحرة فتبدّدوا *

وهى ستون بيتاً ، فسكت ساعة ولا أدرى ما يريد ، ثم أقبل على فقال : هذه لك ؟ قلت : نعم ، قال : ليس الأمر كذلك ، ثم ردها على كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها فى وقته .

٣ — وفى الأغانى كذلك (صـ ١٧٠) أن حماداً قدم على بلال ابن أبى بردة البصرة ، وعند بلال ذو الرمة ، فأنشده حماد شعرا مدحه به ، فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيدا وليس له ، قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدرى إلا أنه لم يقله ؛ فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه ، قال له : إن لى إليك حاجة ، قال : هى مقضية ، قال : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا ، قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما رويته غيرى ، قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام .